



أبو أيوب الأنصاري في رحلة العمر..... (تمة)

منهج النبي ﷺ، إذ كان يأمر من كتب شيئاً غير القرآن أن يمحوه.

فقبل صدور كتاب (التوحيد والوساطة في التربية الدعوية) بمدة، كان مضمونه، وبنفس عنوانه، مادة تربوية معتمدة لدى روافد (رابطة المستقبل الإسلامي)، وكانت على شكل شريط فيديو، مازلت أتذكره جيداً.

إن الطابع الغالب على خطابه في الكتاب هو التوجه إلى مخاطبة أبناء الحركة الإسلامية، إذ كان يرى فيهم، رحمه الله، إن هم ساروا على جادة التمسك بالكتاب، قوة كبيرة للدعوة الإسلامية، سواء بما هم عليه من هيكل تنظيمي، أو بما هم فيه من كم عددي شبابي، إذ كانوا آنذاك يشكلون غالب الشباب المتدينين.

ثم إنه أوكلت له مسؤولية تنظيمية على المستوى الوطني، فكان طبيعياً أن يهتم بما هو مسؤول عنه؛ إلى أين يتجه؟

كان رحمه الله يتحدث عن كتابه (التوحيد والوساطة في التربية الدعوية)، محاججا عن تهمة قصده منه مجرد مهاجمة هذه الجماعة أو تلك؛ مما هو محسوب على من يخالفه في المنهج، بأن أول ظاهرة ينتقدها في الكتاب، إنما تحسبها أول مرة لدى جماعته التي احتضنته، وبقي فيها زمناً إلى حدوث الوحدة المعروفة، وهي ظاهرة (الوساطة العلمية)، إذ معلوم لدى من قرأ الكتاب أنه قسم الوساطة المشوشة على نور القرآن إلى وساطتين: وساطة علمية، ووساطة روحية.

ومن ثم يمكن القول بأن أول نقد نهضت له همته، رحمه الله، كان (ذاتياً)، ينظر إلى المحيط القريب، قبل النظر إلى ما يليه في القرب.

لقد بدأ عمله أستاذاً بكلية الآداب بالمحمدية، سنة (1987 م)، واستمر فيها سبع سنوات، وكان والده، رحمه الله، يحثه على السعي للانتقال إلى مدينة مكناس، باعتبار قريتها النسبي من إقليم الرشيدية، فقدر الله ذلك الأمر سنة (1994 م).

فشهدت مكناسة، بطابعها الشعبي، مرحلة تحوله من داعية يجالس الخاصة من طلبة العلم الشرعي وشباب الحركة الإسلامية، إلى داعية يخاطب العامة، ولا يحتكر نفسه لصالح أحد.

ولا يبعد أن يكون وجوده، رحمه الله، بمدينة مكناس، بما هو معروف عنها لدى عامة الناس من شروخ تضخها، قد أسهم، إضافة إلى قناعاته في فقه الأولويات الدينية، في الانتباه إلى السيل الجارف من المنكرات، الذي يقلع أمامه طلائع الخير ويدهسها دوساً، فكان كتابه (الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب) استنبصاراً مبكراً بالوضع الذي نعيشه في هذه الفترة.

ثم جاء بعد ذلك كتاب (البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي)، الذي يعتبر من الناحية المنهجية التصورية تفرُّيعاً على مفهوم التوحيد والوساطة، فإذا كان الوحي القرآني لا ينبغي أن نخلطه بغيره مما قد يشوش عليه، ومما يعرض لنا عادة في سياق خدمة الوحي وشرحه، كيف بما هو خارج عن مجال الوحي قرآناً وسنة، وداخل في مجال الاجتهادات التي مازالت إشكالات لم تتجل التجلي الكافي لبناء عمل عليها، كيف بهذه الأخيرة إذا سيطرت على ذهن الداعية وصارت محرك مسيرته؟

ولقد كان للكتاب قصة.. بعيد قيام الوحدة بين حركة الإصلاح والتجديد ورابطة المستقبل الإسلامي، انسحب بعض الإخوة، لاعتراضهم على بعض الترتيبات العملية التي يرون أنها

حاسمة في تصويب خطوات الوحدة، كان، رحمه الله، يقرهم على صواب المعتمد الذي استندوا عليه، لكنه خالفهم في القرار الذي بنوه عليه، ولقد كان سبباً قوياً في رد كثيرين عن التراجع عن الوحدة.

إذ كان، رحمه الله، ميلاً إلى التمهّل في اتخاذ القرارات الحادة، ويُغلب حسن الظن ما وجد إلى ذلك سبيلاً، لكن الذي تبين له حسب روايته، رحمه الله، وبعد مدة من التبين كافية، أن المكتب التنفيذي لحركة التوحيد والإصلاح، كان يسيطر في الأوراق برنامجاً، ويسير عملياً وفق برنامج آخر، تأخذ فيه السياسة زمام المبادرة.

ولقد خرج كتاب (البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي)، متزامناً مع الفترة التي كان مؤلفه، رحمه الله، يصرح فيها بأنه لم تعد له أي علاقة بأي جهة تنظيمية.

هنا أدرك الأستاذ، رحمه الله، من طريقه الدعوي منزلاً! فكان عليه تبين علاماتها، ليسلم له ما هو أت منها؛ فإذا كانت السياسة لها نصيب من المشروع الدعوي محصور في مجال الاجتهادات، فما حقيقة النصيب الأكبر من مشروع الدعوة، وما مداه مفهومها ومنهجها؛ فكان كتاب (بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إِبصار آليات الطريق).

جاء بعد (سبباً المرأة في الإسلام)، الذي يمكن اعتباره لبنة تصحيحية في فقه التدين، وهو يذكر بكتاب (الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب).

ثم كتاب (ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله)، الذي يمكن اعتباره، بالنظر إلى مضمونه وتاريخ صدوره، بمثابة الشق التطبيقي ل(بلاغ الرسالة القرآنية).

أما كتاب (الأخطاء الستة للحركة الإسلامية) والذي أثار ضجة سياسية، فلا جديد فيه من الناحية التصورية، وكله متعلق بالتنزيل وفقه الواقع، لا ببناء التصورات، فغاية ما فيه تنزيل الجانب التصوري الذي أسسه كتابا (البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي) و(الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب)، على واقع الحركة الإسلامية بالمغرب.

ومن غريب ما قاله، رحمه الله، عن عنوان الكتاب، وقبل مساجلته مع أ.الدكتور أحمد الريسوني، أنه خشي تسميته في الأول (الأخطاء السبعة)، لما للرقم سبعة من دلالات شرعية... فأراد أن يتفاهل.. وأنقص واحداً من سبعة!!!

تلا (الأخطاء الستة) في الطبع والنشر، وإن كان سابقاً عنه في التأليف والرقن، كتاب (الفطرية: من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام)، الذي أبان فيه مؤلفه، رحمه الله، عن تصوراته الذي خلص إليه من تجربته الدعوية، واختاره مسلماً راشداً لحركة الدين في المجتمع: تداول القرآن بين الناس قراءة وحفظاً وتدبراً، يقودهم في ذلك علماء الأمة.

فأما تداول القرآن فتولى شرح منهاجه كتاب (مجالس القرآن: من التلقي إلى التزكية)، وأما قيادة المشروع ففصل في إنتاجها كتاب (مفهوم العالمية: من الكتاب إلى الربانية).

وسبق كتاب (الفطرية)، بتمامه كتاباً ورقناً، ل(الأخطاء الستة)، فيه دلالة واضحة على منهج الأستاذ، رحمه الله، إذ يبدأ بالبناء أولاً، ويصوغ البديل صياغة كاملة، قبل أن يعالج المسارات المرتبكة تبياناً وإيضاحاً.

فإن كان قدم هذا على ذاك في الصدور، فأحسبه إنما أراد بذلك، رحمه الله، أن يبدأ بخطه الدعوي الخالص وقد نفذ عنه كل المشوشات التي قد ترجعه إلى عهد مضى! ثم تلا ذلك التطبيق العملي لهذا، بأن شرع الأستاذ، رحمه الله، في تدبر القرآن في

جلسات خالية عن أي أغلال تنظيمية، فاتم سورة البقرة تفسيراً، وقد سجلت تلك الجلسات كاملة تسجيلاً صوتياً.

حكى لي أحد محبيه أن أبا أيوب الأنصاري لما أراد أن يشترع في تدوين تفسيره، هاب الأمر لجلالته... فكان الله أراد أن يهيئته للحال التي يكون الفقيه بها خاضعاً لله، لأبسا لبوس الرقة التي تحتاجها الأي لفهمها، والاعتراف من أسرارها، فقدر الله عليه المرض..

زاره وهو في حاله هذه شيخه أ.الدكتور الشهيد البوشيخي، فسأله عما يكتب؛ فأخبره، رحمه الله، بأنه أنهى تفسير البقرة وشرع في آل عمران، فعلق فضيلة الدكتور متمنياً لو يقوم مؤلف بتأليف كتاب (العلماء المرضى)، على غرار (العلماء العزّاب) لعبد الفتاح أبي غدة!

فبين كتاب (التوحيد والوساطة) والرتوع في حياض القرآن، مسيرة بين طرفين توسطتهما محطات ووقفات، فأما الطرف الأول فهو التأسيس التصوري المتمثل في (التوحيد والوساطة)، وأما الطرف الثاني فهو تنزيل عملي للطرف الأول بمباشرة الغوص في كتاب الله مكابدة وتفسيراً.

وهذه المسيرة التي وصلت الطرفين جديرة بالدراسة المفصلة.

الدراسة المصطلحية براق الإسرائ

إن أثر المنهج الدراسي المصطلحي واضح جدا في كتبه، رحمه الله، وقد قاده الله به إلى خاتمتين جميلتين: تفسير القرآن، والأرض التي قبض بها!

كما أن منهج تبين المصطلحات والمفاهيم وتبينها واضح جدا في مسيرته الدعوية، رحمه الله، فمثلاً في المرحلة التي تولى فيها رئاسة المجلس العلمي بمكناس، جعل مناقشة مفاهيم (السلفية)، و(الصوفية)، وغيرها من المفاهيم التي كان في نيته الاشتغال عليها... جعل ذلك مقدمة ضرورية لبدء البيان الدعوي بين الناس بعد.

فالمصطلح أول ما يبداً به كتبه ودعوته، فأما أن ينفذ غبار الدخن عن مصطلح قرآني شرعي، ك(الحكم)، و(الإبصار)... أو يسك مصطلحاً جديداً، وينتج لغة فريدة، ذات تأصيل شرعي متين، ك(التوحيد والوساطة)، و(الفطرية)...

أو يستجلي مصطلحات فقيه أو مفسر، كما صار به القدر إلى تأليف كتاب (مفاتيح النور)، بتكليف من معهد الدراسات المصطلحية، فحقق الله بذلك للأستاذ، رحمه الله، ما تيمن به في تكتيه بأبي أيوب الأنصاري، فتوفاه الله بالأرض التي استشهد بها أبو أيوب الأنصاري ﷺ.

كانت نيته، رحمه الله، في التفسير، بادئ الأمر، أن يستغل على نماذج تكون بمثابة الشق التطبيقي لكتاب (مجالس القرآن)، فالأمر إلى العزم على السفر عبر القرآن حرفاً حرفاً إلى تمام الختم، لكن لله في تدبيره حكيم.

الرجل الفريد

كان، رحمه الله، ذا طابع شاعري في حياته، وفي جميع أحواله، مما يعرفه عنه كل من رافقه، وكان يتأمل تأملات حتى يحدث له شبه فناء غير متكلف عما حوله.. قد يحاضر في الكلية، فيجلس على سطح مكتبه حيناً، وحيناً يرفع قدميه متربعا فوقه كما لو كان جالساً على الأرض! يحدث ذلك بتلقائية تامة، ولو فعلها غيره لبدأ عليه التكلف، وربما التعالي!

وكان مرة في مكان عام يناقش أمراً، فجلس القرفصاء بطريقة (صحراوية)! فأخرجت وعرضت عليه إحضار كرسي،

فرفض متعللاً بارتياح نفسه لجلسته تلك! كان، رحمه الله، يتحاشى أن يجرح أحداً، صغيراً كان أم كبيراً، وكان ينتبه إلى انفعالات الناس غير الظاهرة، فيتفرسها ليرفع عن مخاطبه الحرج الذي لم يستطع البوح به، وذلك من بالغ الأدب منه، رحمه الله، وأحذب العطف.

كان شديد البعد عن سوء الظن، وكان حليماً عمن يتحايل عليه، مع افتتانه إلى حباله الخفية.. يجيئه الرجل في أمر من أمور الدين أو الدنيا، فيتحايل بعض الاحتيايل في وسيلته وكلامه، أو في غايته ومقصوده، ويخطط خيراً بشراً، ثم يلين الأستاذ له القول، ويقضي الحسن مما يريده منه الرجل، حتى لتمثلن نفسك غيظاً مما ترى، ثم تعلم بعد حين أن الأستاذ، رحمه الله، تفتن إلى أدق مما فطنت به من احتيايل الرجل، لكنه تغافل عنه تغافلاً حليماً كريماً.

في صغره، كان يساعد والدته في أشغال البيت مساعداً عجيبة... وكذلك كان يصنع مع أهله بعد زواجه.

ربما أتى عليه حين، تجده فيه، حاملاً بيده ريشة يرسم بها مواجيد أصباغاً على لوحة بين يديه.. لم تكن يده ماهرة جداً في فن الرسم، لكنها كانت تتحرك بوحى من روحه، لتخط لوحات يتطاير منها غبار الحركة والانفعال، وأخرى تتوقف عندها العين لتمتلي من هدوئها وسكينتها.

وقد درس دراسة خاطفة الفن التشكيلي بقواعده، إذ كانت عنده كتب، أحسبه استعارها، تتحدث عن الظلال والأضواء، والمذاهب الفنية في ذلك.

غلاف رواية (كشف المحجوب) هو، رحمه الله، من صممه.

كان يتجنب نوات الأرواح ويرجح حرمة رسمها، فإن فعل فيحتال على رأسها بحيلة فنية يغطيها بها.

وأحسب أن أجمل لوحة رأيتها له، فرس تركض في جو السماء، وقد اكتف جوائنها سحب غامق، والبرق يتقدح من سنايكها، وفي موضع الرأس نار أو نور يتدفق منه سيل منحدر باستقامة وميلان باتجاه الأرض!

عند ركوعه أو سجوده، كانت تصدر منه تسبيحات عميقة حتى لتسمع تنهده عن بعد منك وهو في المسجد، من غير قصد منه إلى ذلك، وكانت هذه علامة أعرف بها ما إذا كان موجوداً في المسجد الذي أكون فيه حينها!

كان في بيته ديك! وكلما مات له ديك اتخذ ديكاً جديداً.. كان يحب صوته!

لكني ما عرفت حقيقة السر في ذلك إلا بعد وفاته، رحمه الله.. فلقد بت ليلة في آخر بيت استقر به، فقدر الله علي أرقاً، حينها علمت الأنس الذي يجده في أذان الديك من يكون مستيقظاً في آخر الليل، وكذلك كان حاله، رحمه الله، حسب ما يرويه عنه أهله.

من طريف ما حدث له، رحمه الله، أنه لما اتجه العزم لديه، إلى ترقى منبر الجمعة، كان مطلوباً منه أن يجتاز مباراة للحصول على الترخيص الرسمي، فاجتازها وأسقط فيها!

ولما أراد أن يصعد المنبر أول مرة، سارع أحدهم، فصعد درج المنبر قبله، فحيل بين أبي أيوب وبين الخطبة في المسجد الذي عين فيه!

كانت خطب الجُمع الأول، التي القاها يغلب عليها الطابع الأكاديمي قليلاً، لكنها صارت بعد قريبة من الناس جداً، فجعل الناس يتوافدون على دروسه، فكانت مجالسه في المسجد عامرة.

وفي أواخر دروسه قبل وفاته، رحمه الله، صار المسجد يمتلي بالناس امتلاء لم أر له مثيلاً في مكناس، في أي درس من دروس المساجد، ولقد كانت سبعة دروس، ختم بها، ثم مضى إلى ربه.